مجلة الأزهر - يوليو ١٩٦٢

التنافس السلمي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

ازدهر التبادل الثقافي في ظل الدولة الإسلامية . ولا سيما في عصور العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ، إذ أدرك الخلفاء - بعد أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وبسطت ظلها على كثير من بلاد العالم القائم حينئذ - أنه لا حائل بين العقيدة الإسلامية وبين الانتشار في ربوع الأرض فلا ضرورة إذن للجهاد ما لم يصد عاد عن سبيل الله ، والأولى أن تدخل الدولة الإسلامية في علاقات عهدية مع العالم المسيحي في ذلك الحين ومع سائر الأمم المجاورة ، حتى يتفرغ ولاة الأمر من المسلمين لشئون دولتهم المترامية الأطراف في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .

وليس أفضل من رسالة الفكر المشترك سفيراً لإنشاء العلاقات الودية وتوطيد الروابط بين الأمم والشعوب ذلك أن تبادل المعاني والأفكار لا يقل أثراً في دعم الصلات الحميدة من تبادل المنافع المادية ، فهو يقرب بين النظرات المتباينة ويهيئ النفوس لاقتلاع بذور الشك وعدم الثقة ، فيصبح الطريق ممهدا للتعاون والتضامن في ظل الأمن العالمي بين أعضاء الأسرة الدولية ، سواء تلك التي تتفق في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو التي تختلف فيها .

ومن ثم لم يقف اختلاف هذه النظم بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى حائلا دون تلاقيهما في الميدان الثقافي وكانت الدولة العباسية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في ذلك الحين فقد امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وذلك فضلا عن امتداد أرجائها شمالا وجنوبا . وكانت امبراطورية الروم المسيحية — الامبراطورية البيزنطية — تبسط سلطانها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا .

ولم تقصر الامبراطورية الإسلامية علاقاتها الثقافية على الدولة البيزنطية ، فقد امتدت بها إلى سائر الممالك من الأمم . فسارت البعثات العلمية بين البلاد الإسلامية وبين القسطنطينية وروما ، ومملكة البلغار ، ودولة الفرنجة التي خرجت من أضلاع بيزنطة والهند

فى جهودهم المبذولة فى سبيل قضية العلم من أجل الحياة والحضارة والحرية ، منهم من آمن بالعقيدة الإسلامية عن اقتناع ويقين بالحق ، ومنهم من بقى على دينه لا يخشى جوراً عليه ولا اضطهاداً .

موقف للخليفة المأمون فى التنافس السلمى

وفى ختام هذه الدراسة نسوق مثالا تاريخياً يشهد بما بلغته الدول الإسلامية فى عهدها الزاهر من ذروة السبق بانتهاج سياسة التنافس السلمى حول الثقافة مع جيرانها من الأمم والشعوب التى تخالفها فى العقيدة .

فقد نما إلى علم الخليفة « المأمون » - وقد بلغ اهتمامه بالثقافة حداً ليس له سابقة فى تاريخ النهضات العلمية - نبأ عالم رومى نابغة يدعى « ليو » ذاع صيته فى علوم الفلك والهندسة . فتاق إلى قدومه إلى ديار الإسلام للإفادة بعلمه الواسع فى الرياضيات فى تدعيم حركة البعث العلمى ، وأنفذ لذلك سفارة خاصة إلى الامبراطور البيزنطى « تيوفيل » يطلب إليه حضور هذا العالم إلى بغداد لفترة قصيرة من الزمن . وقال : خليفة المسلمين فى رسالته « إنه يعتبر ذلك عملا وديا » غير أن تيوفيل لم يستجب له ، وتكررت المفاوضات حتى بلغ الأمر بالمأمون أن عرض على امبراطور بيزنطة صلحاً دائما وألف قطعة ذهبية فى مقابل حضور هذا العالم إليه .

ولكن تيوفيل أصر على رفض هذا العرض بدعوى أن أبحاث ليو كانت تتعلق فى شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية .

وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية فى عهد المأمون وسعى الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها فى علاقات عهدية ، ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون ومدى حرص تيوفيل على منافسة الخليفة فى ميدان البحث العلمى . فقد كان ما عرضه المأمون من توقيع معاهدة للصلح بين المعسكرين - رغم أن ميزان القوى فى صالحه - ينطوى على تضحية منه . ولكنه أدرك بثاقب نظره وواسع فكره أن قدوم هذا العالم العبقرى إلى بغداد كفناء لهذه التضحية ، بل إنه يرجحها إن لم يكن يعدلها فى الميزان الصحيح الأمور . وفى هذا أبلغ دليل على تقدير الحكام المسلمين للعلم واعتدادهم به كدعامة أساسية من دعائم دولتهم وركيزة للمبادئ الإسلامية فى أرجاء العالم .

ودلالة هذا الموقف كذلك هى حرص المأمون على جعل السلام من طريق التبادل الثقافى بديلا للحرب . وقد كان فى وسع خليفة المسلمين أن يشن حملة تأديبية على الامبراطور

[البقية على صفحة ١٨٨]

التى ازدهرت فى العواصم الإسلامية والمسيحية ، فقد كانت بغداد وقرطبة القسطنطينية مراكز إشعاع للعلوم والفنون والآداب تنافس كل منها الأخرى فى التزود بالعلم والثقافة والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والأفكار ، وتشجيع العلماء والطلاب على البحث والدراسة ، والإكثار من البعثات الثقافية لتحقيق هذه الأغراض . وقد لعبت تلك البعثات دورا هاما فى إقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التى كانت تحتل السياسية الدولية حينئذ .

التنافس السلمى مستمد من المبادئ الإسلامية :

وفى الحق أن سياسة الدولة الإسلامية فى التنافس السلمى حول الثقافة مستمدة من المبادىء الإسلامية وليست تخطيطا سياسياً مرهونا بحين أو مرحلة تاريخية مؤقتة ، ومصداق ذلك أنه كان بوسع المسلمين أن يفرضوا قوتهم ونفوذهم فى الميدان الثقافى أسوة بالميادين السياسية والعسكرية ، فيشهروا سلاح الثقافة على المسيحيين ، يحرمونهم منها ولا يعطونهم بديلا ، يستولون . وهم الغالبون . على مكتباتهم وعلمائهم وثمرات حضارتهم ولا يبيحون لهم الاطلاع على مكنون العلوم الإسلامية ومعارفها ، فقد كانت حاجة الروم - ونعنى بهم البيزنطيين - إلى العرب ماسة ومستمرة وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الإسلامية وما أحرزوه من انتصارات ودخول الناس كافة فى دين الله وكان التوازن الدولى فى ذلك الحين فى صالح الإسلام ، ومن مصلحة الروم أن يكونوا هم الساعين إلى توثيق العلاقات السلمية بينهم وبين المسلمين اتقاء لبأسهم ، ولا سيما وقد بدأ التصدع يدب فى أركان الدولة البيزنطية بعد أن قامت دولة الفرنجة وظهرت الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان .

حرية الفكر فى الإسلام أساس التنافس السلمى :

وبرغم هذه الظروف لم يعمد المسلمون إلى فرض حرب ثقافية على معسكر المسيحيين لأن هذه الحرب منافية لمبادئهم السمحاء مجافية لروح شريعتهم الغراء فسياسة المنافسة السلمية حول الثقافة متأصلة فى العقيدة الإسلامية ، نابعة من صميم تلك العقيدة ، ذلك أنها إحدى مظاهر حرية الفكر التى اعتنقها المسلمون منذ بداية الدعوة وتميزت بها عقيدتهم وحضارتهم كما يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت تلك الحرية شريعة المعاملة بينهم وبين سائر الشعوب ، فلا تمييز بسبب العنصر أو الملة أو اللون .

التى ازدهرت فى العواصم الإسلامية والمسيحية ، فقد كانت بغداد وقرطبة القسطنطينية مراكز إشعاع للعلوم والفنون والآداب تنافس كل منها الأخرى فى التزود بالعلم والثقافة والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والأفكار ، وتشجيع العلماء والطلاب على البحث والدراسة ، والإكثار من البعثات الثقافية لتحقيق هذه الأغراض . وقد لعبت تلك البعثات دورا هاما فى إقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التى كانت تحتل السياسية الدولية حينئذ .

التنافس السلمى مستمد من المبادئ الإسلامية :

وفى الحق أن سياسة الدولة الإسلامية فى التنافس السلمى حول الثقافة مستمدة من المبادىء الإسلامية وليست تخطيطا سياسياً مرهونا بحين أو مرحلة تاريخية مؤقتة ، ومصداق ذلك أنه كان بوسع المسلمين أن يفرضوا قوتهم ونفوذهم فى الميدان الثقافى أسوة بالميادين السياسية والعسكرية ، فيشهروا سلاح الثقافة على المسيحيين ، يحرمونهم منها ولا يعطونهم بديلا ، يستولون . وهم الغالبون . على مكتباتهم وعلمائهم وثمرات حضارتهم ولا يبيحون لهم الاطلاع على مكنون العلوم الإسلامية ومعارفها ، فقد كانت حاجة الروم - ونعنى بهم البيزنطيين - إلى العرب ماسة ومستمرة وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الإسلامية وما أحرزوه من انتصارات ودخول الناس كافة فى دين الله وكان التوازن الدولى فى ذلك الحين فى صالح الإسلام ، ومن مصلحة الروم أن يكونوا هم الساعين إلى توثيق العلاقات السلمية بينهم وبين المسلمين اتقاء لبأسهم ، ولا سيما وقد بدأ التصدع يدب فى أركان الدولة البيزنطية بعد أن قامت دولة الفرنجة وظهرت الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان .

حرية الفكر فى الإسلام أساس التنافس السلمى :

وبرغم هذه الظروف لم يعمد المسلمون إلى فرض حرب ثقافية على معسكر المسيحيين لأن هذه الحرب منافية لمبادئهم السمحاء مجافية لروح شريعتهم الغراء فسياسة المنافسة السلمية حول الثقافة متأصلة فى العقيدة الإسلامية ، نابعة من صميم تلك العقيدة ، ذلك أنها إحدى مظاهر حرية الفكر التى اعتنقها المسلمون منذ بداية الدعوة وتميزت بها عقيدتهم وحضارتهم كما يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت تلك الحرية شريعة المعاملة بينهم وبين سائر الشعوب ، فلا تمييز بسبب العنصر أو الملة أو اللون .

فى جهودهم المبذولة فى سبيل قضية العلم من أجل الحياة والحضارة والحرية ، منهم من آمن بالعقيدة الإسلامية عن اقتناع ويقين بالحق ، ومنهم من بقى على دينه لا يخشى جوراً عليه ولا اضطهاداً .

موقف الخليفة المأمون فى التنافس السلمى

وفى ختام هذه الدراسة نسوق مثالا تاريخياً يشهد بما بلغته الدول الإسلامية فى عهدها الزاهر من ذروة السبق باتهاج سياسة التنافس السلمى حول الثقافة مع جيرانها من الأمم والشعوب التى تخالفها فى العقيدة .

فقد نما إلى علم الخليفة « المأمون » - وقد بلغ اهتمامه بالثقافة حداً ليس له سابقة فى تاريخ النهضات العلمية - نبأ عالم رومى نابغة يدعى « ليو » ذاع صيته فى علوم الفلك والهندسة . فتاق إلى قدومه إلى ديار الإسلام للإفادة بعلمه الواسع فى الرياضيات فى تدعيم حركة البعث العلمى ، وأنفذ لذلك سفارة خاصة إلى الامبراطور البيزنطى « تيوفيل » يطلب إليه حضور هذا العالم إلى بغداد لفترة قصيرة من الزمن . وقال : خليفة المسلمين فى رسالته « إنه يعتبر ذلك عملا وديا » غير أن تيوفيل لم يستجب له ، وتكررت المفاوضات حتى بلغ الأمر بالمأمون أن عرض على امبراطور بيزنطة صلحاً دائما وألف قطعة ذهبية فى مقابل حضور هذا العالم إليه .

ولكن تيوفيل أصر على رفض هذا العرض بدعوى أن أبحاث ليو كانت تتعلق فى شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية .

وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية فى عهد المأمون وسعى الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها فى علاقات عهدية ، ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون ومدى حرص تيوفيل على منافسة الخليفة فى ميدان البحث العلمى . فقد كان ما عرضه المأمون من توقيع معاهدة للصلح بين المعسكرين - رغم أن ميزان القوى فى صالحه - ينطوى على تضحية منه . ولكنه أدرك بثاقب نظره وواسع فكره أن قدوم هذا العالم العبقرى إلى بغداد كفناء لهذه التضحية ، بل إنه رجحها إن لم يكن يعدلها فى الميزان الصحيح للأمور . وفى هذا أبلغ دليل على تقدير الحكام المسلمين للعلم واعتدادهم به كدعامة أساسية من دعائم دولتهم وركيزة للمبادئ الإسلامية فى أرجاء العالم .

ودلالة هذا الموقف كذلك هى حرص المأمون على جعل السلام من طريق التبادل الثقافى بديلا للحرب . وقد كان فى وسع خليفة المسلمين أن يشن حملة تأديبية على الامبراطور

[البقية على صفحة ١٨٨]

مجلة الأزهر يوليو ١٩٦٢

التنافس السلمي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

ازدهر التبادل الثقافي في ظل الدولة الإسلامية . ولا سيما في عصور العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ، إذ أدرك الخلفاء — بعد أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وبسطت ظلها على كثير من بلاد العالم القائم حينئذ — أنه لا حائل بين العقيدة الإسلامية وبين الانتشار في ربوع الأرض فلا ضرورة إذن للجهاد ما لم يصد عاد عن سبيل الله ، والأولى أن تدخل الدولة الإسلامية في علاقات عهدية مع العالم المسيحي في ذلك الحين ومع سائر الأمم المجاورة ، حتى يتفرغ ولاة الأمر من المسلمين لشئون دولتهم المترامية الأطراف في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .

وليس أفضل من رسالة الفكر المشترك سفيراً لإنشاء العلاقات الودية وتوطيد الروابط بين الأمم والشعوب ذلك أن تبادل المعاني والأفكار لا يقل أثراً في دعم الصلات الحميدة من تبادل المنافع المادية ، فهو يقرب بين النظرات المتباينة ويهيئ النفوس لاقتلاع بذور الشك وعدم الثقة ، فيصبح الطريق ممهدا للتعاون والتضامن في ظل الأمن العالمي بين أعضاء الأسرة الدولية ، سواء تلك التي تتفق في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو التي تختلف فيها .

ومن ثم لم يقف اختلاف هذه النظم بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى حائلا دون تلاقيهما في الميدان الثقافي وكانت الدولة العباسية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في ذلك الحين فقد امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وذلك فضلا عن امتداد أرجائها شمالا وجنوبا . وكانت امبراطورية الروم المسيحية — الامبراطورية البيزنطية — تبسط سلطانها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا .

ولم تقصر الامبراطورية الإسلامية علاقاتها الثقافية على الدولة البيزنطية ، فقد امتدت بها إلى سائر الممالك من الأمم . فسارت البعثات العلمية بين البلاد الإسلامية وبين القسطنطينية وروما ، ومملكة البلغار ، ودولة الفرنجة التي خرجت من أضلاع بيزنطة والهند